

- الصديق أبو بكر

بين العقاد وهيكمل

للأستاذ محمود أبو ربة

كانت هذه الكلمة في أصلها مستخرج خالصة لكتاب (عقبة الصديق) الذي أخرجه الكاتب الكبير عباس محمود العقاد، ولكن عرض ما غير وجهة القول، وجملى أناول بالحديث كتاباً آخر منه، ولعل الخيرة فيما وقع

ذلك أن أحد الأدباء واجهني بسؤال قال فيه: ترى ماذا بقى من تاريخ أبى بكر بعد ما أتى به هيكمل باشا في كتابه، فيجربى به قلم غيره؟ وإنى أجيبه هنا فأقول: إن هيكمل باشا قد عنى في كتابه بذكر الأخبار وإيراد الوقائع التى حدثت في عهد أبى بكر متبهماً في ذلك سكتن من قبله من المؤرخين الذين ينقل بعضهم عن بعض وعلى أنه قد أطلال في النقل حتى خرج عمله في سفر ضخيم، فإنه - كما قال صديقنا الكاتب السيد محب الدين الخطيب - قد فاته الاطلاع على مراجع وثيقة واعتمد على مصادر واهية لا يصح التعميل عليها (المقتطف والفتح)

ومن أجل ذلك ترى كتابه قد حمل أخباراً ما كان لمؤرخ يحقق أن يأخذ بها، مثل ما روى أن علياً حمل فاطمة على دابة وخرج بها بطوف على الناس يجبر هذه الدابة وهى تناشد الرجال وتتوسل إليهم أن ينصفوا بعلمها وهم يعتذرون آسفين. وقد عجب الكاتب الكبير إبراهيم عبد القادر المازنى في البلاغ من إيراد هيكمل باشا لهذه القصة وقال «إن المرء لا يحتاج إلى ذكاء أو علم ليدرك أنها مختلفة من أولها إلى آخرها»

ومن الأخبار التى نقلها هيكمل باشا إلى كتابه وهى إلى الخرافات أدنى منها إلى الحقائق أن المنكبوت خيمت على النار لتحجب النبي وصاحبه عن الناس. ومن العجيب أن ما أتى به في كتابه من مثل هذه الخرافة قد عابه على الدكتور طه حسين يوم أن نشر الجزء الأول من كتابه (على هامش السيرة) وكان مما قاله في ذلك: «إن هذه الأمور إنما وضعت لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب ولتشكيك المستنيرين ودفع الزبية إلى نفوسهم في شأن الإسلام ودينه» (السياسة الأسبوعية)

هذا هو كتاب هيكمل باشا ونحن بما أظهرنا من نقد - لنا ولنغيرنا - لا ننقض منه، وإنما نقول إنه قد أصبح مصدراً من المصادر التى يجد فيها الباحث تاريخ الإسلام في عهد أبى بكر وبخاصة تاريخ حروب الردة

أما العقاد فقد اتخذ في تأليفه منهجاً جديداً يبين ما ذهب إليه رجال التاريخ الإسلامى جميعاً، ذلك أنه جعل وجهته دراسة شخصية أبى بكر وتحليل ملكاته. وقد بين هذا النهج بقوله: «إنى لا أكتب ترجمة للصديق رضى الله عنه، ولا أكتب تاريخاً لخلافته وحوادث عصره، ولا أعنى بالوقائع من حيث هى وقائع، ولا بالأخبار من حيث هى أخبار، فهذه موضوعات لم أقصدها... ولكننا قصدت أن أرسم للصديق صورة نفسية تعرفنا به وتجعلنا لخلافته وبواطن أعماله كما تجلو الصورة ملامح من تراه بالعين، فلا تمنينا الوقائع والأخبار إلا بمقدار ما تؤدي أداءها في هذا المقصد... وهى قد تكبر أو تصغر فلا يهمننا منها الكبر أو الصغر إلا بذلك المقدار، ولعل حادثاً صغيراً يستحق منا التقديم على أكبر الحوادث إذا كان فيه دلالة نفسية أكبر من دلالاته، ولحمة مصورة أظهر من لحته» (ص ٣)

وهذا المذهب الذى اتخذته لدراسة أبى بكر هو ما نحتاج إليه ولا ريب في هذا العصر وما يجب على كل كاتب مجيد أن يسلكه، لأنه كما يقول العقاد: «أوجب مما كان في الأزمان النابرة لأن الأسباب التى تنفض من وقار للعظمة لم تزل تتكاثر منذ القرن الثامن عشر إلى الآن... وأن الإنسانية لا تعرف حقاً من الحقوق إن لم تعرف حق عظمتها، وأن الإنسانية كلها ليست بشيء. إن كانت العظمة الإنسانية في قديمها أو حديثها ليست بشيء» (ص ٦ و ٧)

ولكى يحكم التصوير ويوفى بعمله على الناية جعل من عقله وفكره وعلمه مجهرأ جعله أمام شخصية أبى بكر ثم أجرى قلمه على القرباس ليرسم ما يستلطن في هذا المظهر حتى خرجت هذه الشخصية في صورة «صادقة كل الدق في جللتها وتفصيلها» وإذا كانت الصورة الجميلة التى تتفرق العين لا يمكن لواصف أن يجلوها على حقيقتها فإنما نشير إلى بعض ملامح تلك الصورة التى أبدعها قلم العقاد إشارة عابرة توفى ولا تنفى

لقد جعل العقاد من مذهبه إذا ما ترجم لعظيم أن يستغنى

أما أمر الردة فيبينا ترى هيكل باشا يكتفى بأن يقول فيه عن الذين ارتدوا « إن كثيراً منهم راحيم الحنين إلى عقائدهم الأولى فلم يلبثوا حين علموا بوفاء رسول الله أن ارتدوا عن دين الله » ص ١٤ .
ويقف في التمليل عند ذلك ، إذ بك تبصر العقاد قد أرجع هذا الارتداد إلى علل منطقية ودلائل عقلية لا تطيل بذكرها . ص ١٤١
وهذا هو فرق ما بين من يأخذ الأمور من ظواهرها وبين من يوغل في دراستها إلى أن يصل إلى بواطنها

بقي أمر لا بد من أن نقول فيه كلمة صريحة ، ذلك هو موقف أبي بكر من فاطمة بنت الرسول رضى الله عنها وما فعل معها في ميراث أبيها . وهذا أمر نالت فيه الأستاذ العقاد وكل من يرى رأيه ؛ لأننا إذا سلمنا معهم بأن خبر الآحاد الظني يخص الكتاب القطعي ، وأنه قد ثبت أن النبي قد قال إنه لا يورث . وأنه لا تخصيص في عموم هذا الخبر ، فإن أبا بكر كان يسمعه أن يعطى فاطمة رضى الله عنها بمضى تركه أبيها كأن يخصها بفدك ، وهذا من حقه الذي لا يمارسه فيه أحد ، إذ يجوز لل خليفة أن يخص من شاء بما شاء ؛ وقد خص هو نفسه الزبير بن العوام ومحمد بن مسلمة وغيرهما ببعض متروكات النبي . على أن فذلك هذه التي منمها أبو بكر من فاطمة لم تثبت أن أفضلهما (الخليفة) عثمان لمروان هذه لمحات قصيرة من ملامح صورة أبي بكر التي صورها العقاد ؛ أما هذه الصورة على حقيقتها فإنه لا يغنى القول فيها عن الاطلاع عليها

وامل القارىء قد أدرك بما بيناه بعد ما بين عمل هيكل باشا وعمل العقاد ؛ فذاك قد أثر حشد الأخبار وسوق الأحداث فعمل الإخباريين ، وهذا قد أبدع مذهبا جديدا في التأليف أعانه عليه أنه لم يتوله إلا وهو مستحصد المعرفة من عقل وفكر ، مستكمل الأداة من اطلاع وعلم . وقد خرج هذا النحو من التأليف في عبارة محكمة التردد لم يستلهم فيها وحى الخيال ، وإنما استعان بمنطق الفيلسوف الذي يفتح من آفاق الحقائق مالا يبلغه خيال الشاعر أو الكاتب

وإذا كانت مؤلفات العقاد تعمل على تربية العقل وتنمية الفكر فإن ما يكتبه عن عباقرة الإسلام يربى على ذلك بأنه خير دعاية للدين الإسلامى وأنجح وسيلة لإظهار فضل رجاله الذين هم أهل لكل تعظيم .

(النصورة)

محمد أبو مينة

في الدرس ويعمن في التحليل حتى يقبض بيده على مفتاح شخصيته ثم يعطيه لكل باحث لكي ينفذ به إلى سر عقربتها ، ويكشف عن دوائر ملكاتها . وقد كشفت له دراسته لأبي بكر عن مفتاح شخصيته فإذا هو « الإعجاب بالبطولة » وقد تحدث عن هذه البطولة فقال : إن البطولة التي أعجب بها أبو بكر هي البطولة التي ليس أشرق منها ، بطولة تعرفها النفس الإنسانية ، هي بطولة الحق و بطولة الخير و بطولة الاستقامة ؛ وهي بعد هذا وفوق هذا بطولة الغداء يقبل عليها من يقبل وهو عالم بما سيلقاه من غت الأقوياء والجهلاء ، تلك هي بطولة محمد » ص ٦٨

ولما عرض إلى ما بين أبي بكر وعمر من تقابل قال : « كان أبو بكر نموذج الاقتداء ، وكان عمر نموذج الاجتهاد » ص ٨٤ وبعد أن بين ما بينهما من اختلاف في الصفات قال تلك الكلمة الحكيمة : « وموضع العبرة بل موضع الإعجاز هو تلك الدعوة التي شملت هذه القوى كلها في طية واحدة ، وضمت هؤلاء الرجال حول رجل واحد ، وجذبت إليها أكرم العناصر التي تاتي بالمعظائم وتصلح للخير وتقدم على الغداء » ص ٩٥

وإذا كان مما لا ريب فيه أن أهم الأحداث التي نجمت بعد وفاة الرسول إنما هو أمر الخلافة وأمر الردة ، فإن العقاد بعد أن استقصى الأمور كلها - في الأمر الأول - وقلها على جميع وجوها قال : « ومصلحة المسلمين في ولايته راجحة في كل حساب ؛ لأن المسلمين كانوا يومئذ أحوج إلى عهد يكون امتداداً لمهد النبي حتى يحين وقت التوسع والتصرف الخ ص ٣٣

ولقد أصاب العقاد في ذلك ، إذ ما كان أحد يصلح للخلافة أو ينهض بأعبائها بعد رسول الله غير أبي بكر ، لا لأنه أفضل الصحابة - فاذك قصدنا - ولكن لما كان عليه العرب حينئذ عامة ، وبشر أمية خاصة ، هؤلاء الذين كانت عصبيتهم السكبوتة تنهز الفرصة للوثية ، فإذا أتيت لها أن تتولى الأمر بعد وفاة الرسول لأعادتها جاهلية ، ولصار أمر الإسلام إلى زوال . وناهيك بما فعلوه بعد أن تولى عثمان أمر المسلمين ، وكانت الدعوة قد استقرت والأمور قد تمهدت ! وإذا كان عهد أبي بكر كما قال العقاد آنفاً امتداداً لمهد النبي فإنه كان كذلك عهد تمحيص وتثبيت . وكذلك ما كان يصلح للأمر بعد أبي بكر غير عمر ولا يتولى بعده إلا من يكون في مثل قوته وصرامته حتى يكون أمر المسلمين بعيداً عن أعاصير الأهواء وعواصف التبع